اعلام الطب العربي

اسماء اشهرهم واخطر آثارهم [1]

للدكتور فيليب حتي

الاستاذ في جامعة برنستن الاميركية

لم يكن عند العرب قبل الاسلام طبٌّ علميٌّ فنيٌّ باصول . والقليل من الطب العلمي الذي كانوا يمارسونه انما كان مبنيًّا على الاختبار متوارثاً بالتقليد تعتوره تعاويذ السحرة وطلسمات الدجّال عند الاصابة بالعين والارواح الشريرة . أما الوصفات فكانت مقتصرة على المداواة بالعسل والفصد والحجامة . وكثير من هذا الطب الساذج المتناقل من مشائخ الحي وعجائزه نُسب فيما بعد الى النبي دون ان يكون للنبي علاقة به ، على ان ابن خلدون المؤرخ النقدي في الفصل الموسوم «علم الطب» من مقدمته يتعرض لهذا الطب المسمى «طب النبي» ويذكر الفراء « انهُ صلى الله عليهِ وسلم انما بُعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث ليعلمنا الطب ولا غيره من العاديات »

وبعد ان ظهر الاسلام وتغلب ابناء الجزيرة على بلدان الهلال الخصيب موطن المدنية الاشورية والفينيقية القديمة فضلاً عن الفارسية واليونانية المتأخرة تفتّحت عقول ابناء العربية بنقاح علمي جديد امّ مصادره ايران واليونان فأخذوا فيما اخذوه عن الشعوب المغلوبة علم الطب فأتقنوه واضافوا اليهِ نتائج تجاربهم وأبحاثهم وتفقّهوا فيهِ الى درجة لم يبلغوها في سائر العلوم الدخيلة باستثناء الفلك والرياضيات . وفي الحديث المشهور « العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان » دليل على مبلغ الطب من خطر الشأن في نفوس العرب المسلمين

واول طبيب عربي في صدر الاسلام هو الحارث بن كلدة الذي ترجم له ابن ابي أُصيبعة في « طبقات الاطباء » وذكر انهُ تخرّج في مدارس فارس الطبية وهو الذي لقبهُ ابن العبري والقفطي بطبيب العرب . وعملاً بقاعدة تلك الايام نشأ ابن الحارث واسمهُ النضر طبيباً كوالده ، والنضر هذا ابن خالة النبي

وبانتقال مركز الخلافة بعد العصر الراشدي من المدينة الى دمشق ازداد اثر الطب اليوناني السرياني في الطب العربي . ومن الملحوظ ان طبيب الخليفة معاوية واسمهُ ابن أثال كان مسيحيًّا كما كان طبيب الحجاج واسمهُ تياذوق ، وهو اسم يوناني . وفي عهد الخليفة مروان بن عبد الحكم نقل عام ٦٨٣م

(١) مقدمة كتاب « معضلة السرطان » . راجع باب مكتبة التحف في وصفه

طبيب يهودي اتحفَ ماسرجَويه عن السريانية بأوّل كتاب طبي عامي في اللغة العربية . وأصل هذا الكتاب يعود الى اليونانية وهو من وضع قسّ في الاسكندرية . اما اول خليفة عُني بشؤون الصحة العمومية فهو الوليد بن عبد الملك (المتوفى عام ٧٠٥ م) الذي على ما روى الطبري وابن العبري جمع المجذومين من الشوارع الى الناس وأقام لهم وللمقعدين والعميان مؤسسة خاصة هي على ما يظهر الاولى من نوعها . وفي خلافة عمر بن عبد العزيز انتقلت مدارس الطب اليوناني من الاسكندرية الى انطاكية وحران واخذت بالازدهار في كنف الخلافة العربية

وعقب العصر الاموي العصر العباسي الزاهر . وفي مستهله وبتعضيد الرشيد والمأمون نقلت معظم الكتب الطبية اليونانية بما فيها مؤلفات أبقراط وجالينوس وبولس الايجيني من اليونانية الى السريانية اولاً ومنها الى العربية مما جعل ابن العربية وريث التقاليد اليونانية العلمية . وتلا دور الترجمة دور التصنيف . فأضاف الاطباء المتكلمون بالعربية الى الذخيرة الطبية القديمة أشياء كثيرة هامة . انما تحقيقهم هذه لم تتعدَّ دائرة الطب العام ولم تتناول علم الجراحة ولا التشريح وذلك لأن الوسائل لدرس تركيب اعضاء البدن لم تكن موفورة في الاسلام . مع ذلك يلذُّ لنا ان نقرأ في ابن أبي أصيبعة (تحرير مولر ج ١ ص ١٧٨) ان طبيباً نصرانياً اسمه يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) كان يعمد الى تشريح القرود وفي جملتها قرد ارسله احدهم من بلاد النوبة هدية الى الخليفة المعتصم

قلنا ان تقدُّم العرب في فن الجراحة وعلم التشريح لم يكن مذكوراً ولا بدَّ من استثناء تشريح العين وجراحتها . فان كثرة امراض عضو النظر في البلدان العربية الحارة حملت عدداً من الاطباء على الاختصاص في هذا الموضوع والتبريز فيه . وأول تأليف في أمراض العين هو لابن ماسويه المذكور آنفاً ومن كتابه الموسوم « دَغَل العين » نسخة خطية في المكتبة التيمورية بالقاهرة وأخرى في لينغراد . وكان لابن ماسويه تلميذ نابغ هو حنين بن اسحق (٨٠٩ — ٨٧٧) صاحب « العشر مقالات في العين » الذي نشره حديثاً الدكتور ماير هوف (القاهرة ١٩٢٨) ومن الذين لمعوا في القرن الحادي عشر بين الكحالين (أطباء العيون) في بغداد علي بن عيسى الذي كان كأسلافه مسيحيًّا

ويجمل بنا ان نذكر ان طبيب الاجيال الوسطى كان اكثر من طبيب . فكان فيلسوفاً وعالماً ، ولقبه العربي « حكيم » يدل على مقامه في نظر معاصريه وكان ولا سيما في بغداد والاندلس في الغالب من ذوي الزعامة الادبية والسياسية . ومن هؤلاء من كانت حرفته تدرُّ عليه المال الوفير . ومن امثلتهم جبرائيل بن بختيشوع النسطوري طبيب الرشيد والمأمون والبرامكة فلقد ذكر القفطي في «اخبار الحكماء» ان ثروته بلغت ٨٨ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم (ما يوازي ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه مصري) وهو رقم لا ريب في مبالغته . ونشأ في عائلة بختيشوع سبعة أجيال متوالية من الأطباء مما يدل ان الصناعة كانت وراثية يتناقلها الولد عن أبيه

ومن الدوائر الطبية التي امتاز العرب بالتقدم فيها دائرة العقاقير ومعرفة خصائصها واستخدامها لمداواة الامراض . فالاطباء المتكلمون بالعربية هم اوّل من أسّس مدارس الصيدلة ووضع التآليف الممتعة في هذا الموضوع ، وذلك ابتداء من جابر بن حيّان الذي زعما حوالى سنة ٧٧٦ م والمحسوب محقّ ابا الكيمياء العربية . ويستنتج من القفطي (تحرير ليبرت ص ١٨٨ — ٩) ان اصحاب الصيدليات في ايام المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) كان لا بد لهم من تأدية امتحان والحصول على اجازة قبل مماطاة الحرفة . ثم سرى هذا القانون على ممارسي الطبابة بعد قرن من ذلك التاريخ . فبأمر الخليفة المقتدر تولى الطبيب سنان بن ثابت بن قُرّة فحص ٨٦٠ ممارساً في بغداد (ابن ابي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢) . وسنان هذا نظّم حملة طبية جعلت همها التجوال من بلد الى آخر لمعالجة المصابين وتولى رآسة البيمارستان (المستشفى) في العاصمة بغداد . وهو البيمارستان الذي انشأه هارون الرشيد على الانموذج الفارسي كما هو واضح من الاسم الذي أطلق عليه

ومما يستوقف الانتباه ان جلّ الاطباء المصنفين بعد دور الترجمة كانوا من اصل فارسي ولكنهم من متكلمي العربية . وفي طليعتهم علي بن ربّن الطبري وابو بكر الرازي وعلي بن عباس المجوسي (٩٩٤) وابن سينا . وكان الطبري في الاصل مسيحيًّا كما يُستنتج من اسم والده « ربن » السرياني ولكنهُ اعتنق الاسلام لدى دخوله في خدمة الخليفة المتوكل . والطبري هو صاحب « كتاب فردوس الحكمة » الذي نُشر بالطبع في برلين عام ١٩٢٨ . اما الرازي (٨٥٠ — ٩٢٣ م) فاسمهُ يدل على انهُ من مواليد الرّي في جوار طهران . وهو في نظر مؤرخي الطب اعظم حكيم عربي . ذكر له النديم في « الفهرست » ١٣٣ مؤلفاً منها ١٢ في الكيمياء . واهم مؤلفاته « الحاوي » و« المنصوري » اللذان تُرجما الى اللاتينية في القرون الوسطى وما لبثا ان اصبحا المعوّل عليهما في تلقين علم الطب في كليات اوربا . ومن جواهر التآليف الطبية العربية رسالة للرازي في الحصباء بيّن فيها المؤلف للمرّة الاولى الفروق بين الحصباء والجدري . ولقد تُرجمت هذه الرسالة في اواسط القرن الماضي الى الانكليزية . ومن ابدع ما ذكرهُ ابن أبي أصيبعة عن الرازي انهُ تحقق النقطة الصحية المناسبة لبناء البيمارستان في بغداد بوضعه قطعاً من اللحم في انحاء مختلفة في البلدة ومراقبة سرعة سير النتانة فيها . وبعد الرّازي فابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) هو اشهر طبيب عربي . وهو صاحب كتاب «القانون في الطب» المتضمن خلاصة الصناعة الطبية على ما مارسها اليونان والعرب في اوانه . وما لبث « القانون » ان نُقل الى اللاتينية في القرن الثاني عشر حتى اصبح بفضل حسن تبويبه وسهولة مناهج الكتاب التدريسي المعوّل عليه في مختلف الكليات الاوربية حتى القرن السابع عشر . وبذلك ملأ المركز الذي كانت تشغله قبله كتب جالينوس والرازي والمجوسي . اما في العربية فالقانون طُبع في رومة سنة ١٥٩٣ فهو اذن من اقدم الكتب المطبوعة في هذه اللغة . ولقد ترجم بعض « القانون » حديثاً الى الانكليزية

ولنلق الآن نظرة عامة على سير الطب في الاندلس العربية . والذي نلحظه لاول وهلة ان معظم الاطباء المتكلمين بالعربية في اسبانيا كانوا فلاسفة اولاً واطباء ثانياً . ومن امثلتهم ابن رشد شارح ارسطوطاليس وابن ميمون اليهودي طبيب صلاح الدين ودفين طبرية وابن طفيل . وبرغم ذلك فانهم اتحفوا العالم بقسط غير زهيد من العلم الطبي . فابن رشد (١١٢٦—١١٩٨) ذكر في كتابه «الكليات في الطب» ان المصاب بالجدري مرة لا يصاب بها ثانية ومعاصره وموطنه ابن ميمون (١١٣٥ — ١٢٠٤) واضع كتاب «الوصول في الطب» وجوّد عملية الختان ونسب البواسير الى قبض المعدة واشار بالمأكولات النباتية علاجاً لها

ومن العرب الاندلسيين الذين اشتهروا بالسياسة والادب وقلّ من عرفهم بصفتهم الطبية الوزير الكاتب لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣— ١٣٧٤) وهو الذي وضع رسالة في الطاعون الذي كان يجتاح اوربا في عصره اثبت فيها ان انتشار هذا المرض المخيف الذي سماه الاوربيون «الموت الاسود» انما هو بواسطة العدوى ، وذلك في عصر لم تكن فيه العدوى ولا الجراثيم معروفة لدى احد

وثمة فرعان طبيان تفوّق فيهما رجال الاندلس اولهما الجراحة وثانيهما علم النبات والعقاقير . ففي الاول لمع الجرّاحيّ الكبير ابو القاسم الزهراوي (* ١٠١٣) طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث . وهو واضع «التصريف لمن عجز عن التأليف» وفيه اشارات الى تفتيت الحصاة داخل المثانة والى وجوب تطهير الجرح بالكيّ . ولقد ترجم الجزء الجراحي من هذا الكتاب الى اللاتينية في قرن الترجمات ، القرن الثاني عشر واصبح الكتاب المدومي في كليات سالرنو ومنبيليه وغيرها . ومن اطباء الاندلس النابغين ابن زُهر المتوفى باشبيلية عام ١١٦٢ ولقد نسب اليه الكتيرون شرف اكتشاف سؤابة الجَرَب على ان التنقيب الحديث يثبت ان احمد الطبري الذي زها في النصف الثاني من القرن العاشر سبق ابن زُهر الى اكتشاف جرثومة هذا المرض وذكرها في كتابه «المعالجة البقراطية»

أما الخطوات الواسعة في تقدّم علم خصائص النبات الطبية فالذي قام بها انما هو الطبيب القرطبي ابو جعفر الغافقي (* ١١٦٥) صاحب كتاب «الادوية المفردة»[1] . وهو الكتاب الذي بنى عليه مواطنه ابن البيطار (المتوفى بدمشق ١٢٤٨) شهرته الواسعة . فابن البيطار هذا على ما اثبت البحث النقدي الحديث مدين لسلفه الغافقي بالشيء الكثير . ولقد حوى كتاب الغافقي اسماء اهم النباتات في اسبانيا وافريقية الشمالية العربية واللاتينية والبربرية مع وصف علميّ لكل منها . ثم جاء ابن البيطار واضاف اليها في مؤلفه «الجامع في الادوية المفردات» حصة من نباتات مصر والشام وآسيا الصغرى التي ساح فيها . ويجب ان لا ننسى في الختام ان الاندلس كانت المركز الرئيسي لنقل مؤلفات العرب الشرقيين الى اللاتينية بحيث اصبحت مُلكاً لابناء اوربا الغربية وبذلك تمت حلقات سلسلة الاتصال بين الطب البوناني القديم والطب العربي المتوسط والطب الاوربي الحديث

(١) المقتطف شرع في نشره بعنوان جامع المفردات والتعليق عليه الدكتوران مايرهوف وجورجي صبحي بالقاهرة